

التجربة الفرنسية في الكتابات التاريخية الإستشراقية للجزائر القديمة
شارل أندري جوليان أنموذجا.

The French Experience in the Orientalist Historical Writings of
Ancient Algeria "Charles Andre Julian as a model".
د. الطيب زين العابدين¹

¹ جامعة محمد لمين دباغين-سطيف 2- (الجزائر)، zinelabidine28@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/11 تاريخ القبول: 2023/02/21 تاريخ النشر: 2023/03/12

ملخص:

الحقيقة المؤلمة حول تاريخ الجزائر القديمة و بلاد المغرب القديم أنه لم يكتبه سكانها شمال افريقيا الأصليين، ورغم نجاح بلداننا في فترات متقاربة من تحقيق استقلالها، غير أنه طيلة الاستعمار وربما بعده بعقود كتبه المستعمر بأقلام مفكره وباحثيه ومؤرخيه، إذ أصبحنا اليوم نتعرف على (تاريخنا) من خلال ما يقولونه حول ماضيينا القديم ، وبواسطتين، فنراهم تارة من خلال أنظار القرطاجيين، وتارة أخرى من خلال أنظار الرومان، وكان لذلك بصمات عميقة ، من هذا المنطلق نحاول في مقالنا هذه أن نعرض الكتابة التاريخية لبلادنا من وجهة نظرهم وقد اخترنا عينة مهمة من الكتاب المستشرقين وهو شارل أندري جوليان.

كلمات مفتاحية: شارل اندري جوليان، الإستشراق، الجزائر القديمة، الاستعمار.

Abstract:

The painful truth about the history of ancient Algeria and the ancient Maghreb is that it was not written by its indigenous North Africans, and despite the success of our countries in close periods of achieving their independence, it was throughout colonialism and perhaps decades after that that the colonizer wrote with the pens of his thinkers, as today we get to know (our history) through what they say About our ancient past, and by two means, so we see them sometimes through the eyes of the Carthaginians, and at other times through the eyes of the Romans, and that had deep imprints, from this standpoint we try in this article to present the historical writing of our country from their point of view, and we have chosen an important sample of orientalist writers, which is Charles Andre julian.

Keywords: Charles André Julian, Orientalism, Ancient Algeria, Colonialism.

*المؤلف المرسل: د. الطيب زين العابدين.

1. مقدمة:

لاشك أن الباحثين الجزائريين في عصرنا اليوم مطالبون أن لا ينظروا للكتابات الأجنبية وبخاصة الفرنسية من خلال الاعتماد عليها في أبحاثهم وكتابتهم وحتى في دراساتهم العليا كأنها كل شيء، وإنما أخذ الحيطة والحذر وقراءتها قراءة نقدية، و أعتقد في الوقت الحالي أن كتابة تاريخ الجزائر القديمة وبقي عصورها التاريخية من وجهى نظر محلية أمر ضروري، ليس للرد على الكتابات الإستشراقية فحسب وإنما لمعرفة تاريخنا، إذ بعد الاستقلال وحتى أثنائه عاش في بلادنا كتاب أجنبى نظروا لتاريخنا بالاعتماد على الواقع السائد وربما حققوا امتيازات ما جعلهم يخدمون أجندة معينة، وهنا يمكن أن تكون فرنسا الوجه الثانى لروما، وفي هذا الصدد نجد شارل أندري جوليان والذي بعد اطلاعي على مؤلفاته نجده يقف بعض الشيء في التاريخ المضاد في بعض من عصور التاريخ الجزائرى، لكن الغربى وعلى العكس من ذلك نجده حول تاريخ الجزائر القديمة له رأى مخالف يتناغم وباقى الكتاب الفرنسيين ويتنافى أحيانا أخرى. من هذا المنطلق جاءت إشكالتنا حول مدى فاعلية كتابات شارل أندري جوليان حول تاريخ الجزائر القديمة؟

وقد تُبنى فرضياتنا على أساس أنّ كتابات هذا المؤرخ والصحفي والأديب جاءت بريئة، لكن هذا لا يمنع أن يكون وراءها أغراض وربما حتى شخصية، والفرضية الثانية مبينة على معطيات من شأنها أن تساهم في دفع المستعمر إلى البقاء، وهو ما لم تنجح روما قديما في تحقيقه.

يكمن هدفنا الأساسى حول الكشف عن طبيعة التوظيف السياسى لفرنسا من طرف مستشرقهم الدراسين لتاريخ الجزائر القديمة، و الكشف عن نواياهم، باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من الصراع الحضارى بين العالمين العربى والإسلامى من جهة و الغربيين من جهة أخرى وبخاصة في مجال التاريخ و الذى

ماتزال شرارته قائمة حتى يومنا هذا، وبذلك سيكون شارل أندري جوليان أنموذجا لهذه الدراسة .

2. حياته وأعماله

1.2 حياته:

ولد بمدينة (كان-Caen) الفرنسية في سبتمبر عام 1891 (جوليان، 1976، ص1)، وتوفي عام 1991م، مؤرخ وصحافي فرنسي مختص في شؤون المغرب العربي، وقد درّس خاصة في معهد الدراسات السياسية في باريس، وفي المدرسة القومية للإدارة وفي السربون، انتقل وهو في الخامسة عشر من عمره ليعيش في الجزائر، وبعد حصوله على شهادة البكالوريا، أصبح كاتباً بمحافظة وهران (عامر، 2016، ص200).

كان أول اتصال لشارل أندري جوليان بالمغرب العربي سنة 1906 حين عُيّن والده أستاذا بمدينة وهران، وكان حينها في السن الخامسة عشر من عمره، وفي سنة 1908 التحق بالثانوية، وانخرط في الحزب الاشتراكي بوهران وهو في سن الثامنة عشر من عمره، أسهم بكتابات في المجلة الأسبوعية للكفاح الاجتماعي، وفي بداية الحرب العالمية الأولى مارس عدة وظائف منها: محرر بدار العمالة وهران، ثم أستاذ للأدب، ولم يهتم في بداية نشاطه الصحفي بوضعية الأهالي فقط، بل اهتم بالمشاكل السياسية والإدارية التي كانت تتخبط فيها بلدان المغرب، وبسبب مواقفه المعارضة للاستعمار أُبعد إلى الجزائر، وهناك ترأس رابطة حقوق الإنسان حيث لقب ب"المدافع عن العرب" من قبل قبائل جرجرة، وبعد الحرب العالمية الأولى أرسل كأستاذ إلى مدينة بوردو، إلا أنه سرعان ما عاد إلى وهران بعد فوزه في انتخابات 1919 بالجزائر (الشيخ، 2020، ص 757).

عمل ثلاثين سنة في التعليم الثانوي وستة عشر سنة في التعليم العالي بمدرسة فرنسا لإقطار ما وراء البحار وبمعهد الدراسات السياسية وبالمدرسة

التجربة الفرنسية في الكتابات التاريخية الإستشراقية للجزائر القديمة" شارل أندري جوليان أنموذجا"
القومية للإدارة وبجامعة السربون (قسم تاريخ الاستعمار)، كان بمثابة مؤسس
لكلية الآداب بمدينة الرباط، بل وعميدها (1957-1961م)، كاتب عام للجنة العليا
للبحر الأبيض المتوسط وأفريقيا السوداء لدى رئاسة الحكومة الفرنسية (1936-
1939م) (جوليان، 1976، ص 1).

2.2 أعماله (مؤلفاته):

- نشر جوليان كتابه " تاريخ افريقيا الشمالية" تونس - الجزائر- المغرب
الأقصى) من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تعريب محمد مزالي والبشير بن
سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م .

- إفريقيا الشمالية تسير : القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، وقد وقع
تعريبه هو أيضا من قبل كل من المنجي سليم والطيب المهيري والصادق المقدم
 وآخرين، وصدر بتونس عام 1976 ، وببيروت عام 1979 .
-تونس أصبحت مستقلة 1951 - 1951 وقد صدر عن منشورات جون افريك عام
1985.

-تاريخ إفريقيا البيضاء، باريس 1966 ، وقد صدر في إطار سلسلة ماذا أعرف عن
المنشورات الجامعية الفرنسية.

-تاريخ الجزائر المعاصرة، الجزء الأول: الغزو وبدايات الاحتلال 1871 - 1827 ، وقد
صدر عام 1964 (عامر، 2016، ص 201)، وفيه الكثير من المغالطات التاريخية
التي لا بد من توضيحها، غير أنّ جانب الموضوعية قائم وموجود في غير ما مكان من
كتابه، ولهذا فعلى الدارس لتاريخ الجزائر أن ينتبه فشارل أندري جوليان يبقى ابن
المدرسة الاستعمارية الفرنسية وإن حاول إخفاء ذلك فلغته التاريخية فضحت
ذلك (عامر، 2016، ص 193).

لقيت كُتب شارل أندري جوليان رواجا كبيرا عند الألاف من الطلبة سواء
في بلاد المغرب أو في فرنسا، لكن ما السر وراء هذا النجاح الكبير؟ جزء من
الإجابة نجده في الأسطر التي كتبها عمر كارلي مؤرخ شمال افريقيا وأستاذ في

جامعة السربون و ناشط من أجل التحرر من الاستعمار قائلا "و على نقيض النماذج من الباحثين الأجانب فقد كان شارل أندري جوليان أستاذا جامعيا ومناضلا ضد الاستعمار " (الطاهر، 2016، ص 83-84)، وهذا ما سنحاول أن نتأكد منه.

3. الكتابة التاريخية عند شارل أندري جوليان :

1.3 مصادر كتابات شارل أندري جوليان:

أمام ندرة الكتابات التاريخية المحلية لتاريخ بلاد المغرب القديم، كان لا بد الاعتماد على ما قدمته المصادر الإغريقية واللاتينية (مراد، 2020، ص 9)، ولما أتى عهد الاستعمار أخذ المؤرخون الأجانب يدرسون تاريخ بلادنا القديم بعمق فترجموا الكتب اللاتينية والإغريقية وجمعوا شتات أخبار الملوك القديمة التي وجدوها مبعثرة في عدد من المؤلفات اللاتينية والإغريقية فدَوَّنوها ورتبوها وزادوا عليها معارفهم الخاصة بعلم الحفريات وقراءة نقوشها والنقود وتأويل شعاراتها ورموزها، حيث كان العرب أبعد الناس عن ذلك العلم لأنهم كانوا يأنفون من دراسة التماثيل والأحجار واللوحات الرخامية وتوابيت الموتى التي كانوا يطلقون عليها لفظ الأصنام والصور والأوثان ، وكانوا يعتبرون هذا العلم مخالف للمبادئ الإسلامية (شهو، 2007، ص 2)، وبطبيعة الحال كان شارل أندري جوليان من الذي قاموا بترجمة النصوص ذات الصلة بتاريخ الجزائر القديمة.

لكن في البداية وحول مسألة ترجمة المصادر بلاد المغرب القديم وحتى عبر العصور، فقد ارتبط الاستشراق وخاصة الأعمال الفرنسية في الجزائر بدعم الجهود الاستعمارية، حيث تضمنت الحملة الفرنسية على الجزائر عدداً من المترجمين والكتاب والفنانين المهتمين، كما أنَّ انعقاد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر عام 1905 بمثابة الانطلاقة الحقيقية للاستشراق، إذ قام المستشرقون بأعمال كثيرة في المجال الديني واللغوي والأثار والعادات والتاريخ وترجمة النصوص (تالي، 2017، ص 512).

التجربة الفرنسية في الكتابات التاريخية الإستشراقية للجزائر القديمة" شارل أندري جوليان أنموذجا"

2.3 ميولات شارل أندري جوليان العلمية:

مما يجهله الكثيرون أن التاريخ القديم كان الحب الأول لشارل أندري جوليان، وعلينا أن نشير في هذا الصدد إلى أنه نذر سنوات من حياته لإنجاز أطروحة حول سبتميموس سيفيريوس فقد كان معجبا " بارتقاء هذه العائلة البربرية وصعودها (Septime Sévère) إلى عرش روما ، ويعتبر شارل أندري جوليان الشخص الثاني بعد إرنست مرسبي التي تمكنت من تجسيد رهان تاريخ شامل لشمال إفريقيا ، ولقي كتاب شارل أندري تاريخ شمال إفريقيا إعجاب المؤرخين والنقاد إلى درجة أنه صنف في خانة" التاريخ المضاد (الطاهر، 2016، ص 84).

3.3 موقف بعض المؤرخين من شارل أندري جوليان:

حتى نكون موضوعيين ومنصفين، ما ينبغي الاعتراف له، أن عددا لا بأس به من إسهامات المستشرقين الأوروبيين - رغم الملاحظات الاستثنائية بسبب تواطؤ بعضهم مع الاحتلال - قد أثرت جانبا معرفيا مهما ، ليس لأي باحث مندوحة أو مفر في الاستغناء عنه بأية حال من الأحوال ، سيما وقد قدّم أصحابها معلومات مذهلة، لم تكن معروفة لدينا من قبل عن تاريخ الشمال الإفريقي عموما، أو عن المدن الجزائرية خصوصا التي تعود تسمياتها أكثر إلى الفترة الفينيقية القرطاجية (يختار، 2021، ص 7-8)، ومن هؤلاء شارل أندري جوليان فحسب رأي قزال هو بمثابة مؤرخ من السابقين في إبراز معالم التاريخ الإفريقي الذي يمكن أن يتأسس عليه تاريخ وطني على غرار الأمم الأخرى، ففي رأي سطيفان اقزال الذي قدّم لكتابة تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس -الجزائر -المغرب) أن "المؤلف لا يخفي ولا ينفي عن شخصه أنّ أراءه لها بعض التأثير على أحكامه بحيث أن السيد أندري جوليان -لا يحب الامبرياليات ولا القوميات- ويميل دائما إلى الدفاع عن الشعب البربري ضد الفاتحين الذين كان ضحية لهم عبر القرون:قرطاجيون، ورمانيون، وندال، بيزنطيون، عرب، أتراك، فرنسيون، وهذا الموقف مشروع وفيه شهامة ولا يزيف رواية الوقائع"، ولاريب أن قزال اعتبر أن مجرد ذكر الشعب باسمه وإبراز شيء من دوره في التاريخ هو دفاع غير مستساغ من طرف المتشبعين بالنزعة

الإمبريالية رغم اعترافه بمشروعه (كامبس، 2011، ص 8)، لكن دفاعه عن الشعب المحلي ضد الفاتحين ليس في حد ذاته ضد الفاتحين وإنما ضد انتشار الديانة الإسلامية.

4. الجزائر القديمة في كتابات شارل أندري جوليان:

1.4- البلاد والسكان:

شارل أندري جوليان من حيث ضبط التسمية للبلاد وسكانها يرى "أن لإفريقيا الشمالية المشتملة على المغرب الأقصى والجزائر وتونس وحدة جغرافية اقتضتها مجموعة جبال الأطلس، ووحدة جنسية لكونها أهلة بالبربر لكن ليس لها تسمية مضبوطة" (جوليان، 1983، ص 11)، يلاحظ هنا تناسيه وإغفاله لسلسلة الأطلس الصحراوي وهي الأخرى بمثابة وحدة جغرافية اقتضتها مجموعة العروق الجزائرية خاصة العرق الشرقي الكبير والعرق الغربي الكبير.

وحقن نكون موضوعيين إذا جئنا لإنصاف شارل أندري جوليان نجده يرى أنه "منذ أوائل عصور التاريخ استقرت ببلاد المغرب شعوب مختلفة شديدة الاختلاف...، فإننا نلاحظ استيطان الساميين – الفينيقيين والعرب- والهندوريين- اللاتين والوندال واليونان، غير أن هذه العناصر المختلفة وإن هي امتزجت بالسكان المستقرين فقد أتت في عدد ضئيل جدا بحيث تعذر عليها تغيير المقومات الجنسية بإفريقيا الشمالية (جوليان، 1983، ص 67).

يضيف المؤرخ السالف الذكر في نظرة المصادر للمغرب القديم بأن "اليونانيون أطلقوا اسم ليبيا على القسم الشمالي من إفريقيا الأهل بالبيض، وقابلوا بينه وبين الصحراء بلاد الأحابش السود، وقبل أن يكون للفظـة- إفريقية-Africa نفس المدلول الذي كان لكلمة ليبيا، استعملتها روما للدلالة على المقاطعة الموافقة لشمال شرقي البلاد التونسية" (جوليان، شارل أندري، 1983، ص 12)، لكنه لم يفصل هنا بين إفريقيا القديمة والجديدة، ولم يشر حتى إلى الجزائر القديمة، حيث حوّل قيصر جانبا كبيرا من نوميديا الشرقية إلى ولاية رومانية باسم إفريقيا الجديدة **Provincia Africa nova** وقد امتدت

التجربة الفرنسية في الكتابات التاريخية الإستشراقية للجزائر القديمة" شارل أندري جوليان أنموذجا"
حدودها من المجرى الأسفل لنهر الوادي الكبير حتى جبال الأوراس غربا وقفصة
وتكاباس جنوبا (فرحاتي، 2007، ص 183).

يقول جوليان أيضا بأنه لم يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم، بل
أخذوه من دون أن يروموا استعماله عن الرومان الذين كانوا يعتبرونهم أجنب
عن حضاراتهم وينعتونهم بالهمج (Barbari)، ومنه استعمل العرب كلمة برابر
وبربري (جوليان، شارل أندري، 1983، ص 12)، أما العرب المسلمون فاستعملوا
تسمية "بربر" كمدلول إثني (خلفة، 2007، ص 14)، حيث يذهب معظم الباحثين
إلى أنّ البربر أصل سامي أولي من أبناء سام ابن نوح لا يافث ابن نوح، فقد كانت
الجزيرة العربية موطن الساميين مغطاة بالثلوج في شمالها، وكانت اليمن بلاد
اليمن والخير وهو مهد أبناء سام الأولين مختلطين مع أولاد أعمامهم أبناء حام،
فلما انحسرت الثلوج اشتدت الحرارة وقحلت البلاد وتفرق سكانها فاننتقل الفرع
السامي من البربر والنوبة والحبشة وقدماء المصريين إلى إفريقيا واستوطنوها،
فانفرد البربر بشمال إفريقيا والحبشيون بإفريقيا الشرقية والسودان بإفريقيا
الشرقية والوسطى، وهذا ما ذهب إليه العرب وهو مشهور المذهب عند الأوروبيين
اليوم لاسيما علماء الألمان الزهاء في بحوثهم، ويتبعهم في ذلك الإيطاليون
(الكعاك، صفحة 51)، وتذهب فرقة من الباحثين إلى القول أنهم ساميون أنساب
العرب، ثم اختلفوا من بعد، فذكر بركوبيوس- وهو من مؤرخي الدولة البيزنطية
عاش في المائة السادسة للميلاد- أنهم من العبرانيين و البونيقيين، وروى الطبراني
أنهم من نسل نقشان- أو نفسان- بن إبراهيم عليه السلام وهو رأي يبدوا أنه
يقترّب من رأي بركوبيوس (الميلي، ص 81-82).

لكن إذا عدنا كلمة بربر و بيربري فتبدو كلمات قديمة بالإضافة إلى أنّ
سكان شمال إفريقيا القديم لم يطلقوا قط هذه التسميات على أنفسهم بل هي
تسميات صاغتها الشعوب الأجنبية الوافدة عليهم، أما الاسم المحلي الذي أطلقوه
على أنفسهم والذي تبناه السكان الأصليون لشمال إفريقيا اليوم فهو الأمازيغيون
أو "إمازيغن" ونحتوا ذلك انطلاقاً من الأصل، اسم الوطن الذي ينتمون إليه، وهو
"تامازغا" وهو الاسم الذي أطلق على شمال إفريقيا باستثناء مصر (ميس، 2010،
ص 14-15)

2.4 الفترتان القرطاجية والرومانية:

على كل حال فإنّ التوصيف التاريخي الأقرب إلى منطق واقع الحال النوميدي خلال تلك الفترة يمكننا من خلاله أخذ بعين الاعتبار الأمرين التاليين:
-الأمر الأول: - على ما يبدو- أن كل ما هو نوميدي قومي قد تراجعت أهميته الذاتية في ظل المد الحضاري القرطاجي والروماني بحيث أصبح كل فعل مؤثر في التاريخ لا يحمل هوية نوميديّة طالما أنّ الفعل روماني وقرطاجي و رد الفعل نوميدي.

-الأمر الثاني: أن نوميديا افتقدت المؤرخ القومي أو الوطني الذي يحفل بالمواقف القومية للأحداث خاصة مع ائتلاف ما تبقى من مكتبة قرطاجة، التي أهداها مجلس الشيوخ الروماني إلى ماسينسا، وأيضا ضياع المؤلفات النوميديّة التي كتبها همبسال الثاني ويويا الثاني والتي وصلت صداها عن طريق المؤرخين الكلاسيكيين (فرحاتي، 2007، ص 14).

يعبر عنهما -الفترة القرطاجية والرومانية في الجزائر القديمة- شارل أندري جوليان بقوله " الاستعمار الفينيقي الذي دخلت البلاد بفضلها في التاريخ لا نعرف من طوره الأوّل إلا ما تفيدنا به روايات مشكوك في صحتها... ولعلّ المصادر القديمة المتعلقة بالاستعمار الفينيقي لم تميّز دائما – كما يعتقد ب.سانتاس- بين طور التعرف والاكتشاف الذي يفسح المجال لتجارة غير منتظمة وبسيطة نسبيا، وبين طور الاستعمار الحقيقي الذي تؤسس فيه المراكز التجارية القارة (جوليان، شارل أندري، 1983، ص 85).

يضيف في شأن الممالك المحلية الثلاثة -نوميديا الشرقية والغربية وموريتانيا فلم يهتم الكتاب بتاريخ شؤون تلك الممالك إلا عندما ظهر أن لهم مساس بروما وقرطاجة، فلم يبقى أثر للتقاليد المحلية، لذا فإنه يخشى أن نبقى على جهلنا بما تعاقب من الفتن ومن انتصارات القبائل المنقرضة وانقراضها وانبعثت الدول المتحدة برابطة الحلف وانهيارها (جوليان ، 1983، ص 131).

التجربة الفرنسية في الكتابات التاريخية الإستشراقية للجزائر القديمة" شارل أندري جوليان أنموذجا"

نجد لظاهرة التقليل من المنجزات التي حققها الجزائريون بمفردهم قديما أمثلة واضحة فيما كتبه هؤلاء المؤرخون من ذلك ما جاء عند جوليان حول انتشار العمران في عهد المملكة النوميدية، حيث قال: "فلم تكن المدن طيلة دهور سوى محطات فينيقية غرست في أرض إفريقية، ولم تعد مراكز للأهالي مثل سيرتا إلا حينما اجبر ملوك نوميديا البدو على الاستقرار، لكن العواصم البربرية رغم أنها تحمل عنوانا ريجياً - الملكية- ليست إلا قرى متواضعة (شنييتي، 2003، ص 17-18).

لكن هنا نتسأل لماذا لم تتكلم المصادر عن تنظيم سياسي قبل القرن الثالث إلا حال حدوث الصراع الروماني القرطاجي الموسوم بالحروب البونية؟. للإجابة على هذا السؤال، تعد الاتصالات الباكرة بين الفينيقيين و السكان المحليين بمثابة دليل على وجود أنظمة و ملوك محليين، ولعل من بين هؤلاء نجد هيارباص واستقباله الأميرة عليسا..الخ- القصة مشهورة-، بالإضافة إلى دفع قرطاج الضريبة للملوك المحليين منذ تأسيس قرطاج وحتى غاية القرن الخامس قبل الميلاد- معركة هيميرا-، وبالتالي هذا يدل على اعتراف بسلطة محلية قوية، بل و القائد حنون القرطاجي سنة 360 قبل الميلاد للقيام بانقلاب ضد الحكم في قرطاج و الاستيلاء عليه من خلال الاستنجد بملك المور، بل والملك إيلماص أثناء غزو أجاتوكليس الإغريقي حاكم سارقوسة للأراضي القرطاجية بين سنتي 310 و 307 ق م وتحالفهما ضد قرطاج.

إنّ القارئ الذي يكتفي بهذه الإشارة المقتضبة يتصور الجزائر في العهد النوميدي الذي يعد مفخرتها في التاريخ القديم، كأنها أدغال ومراعي يجوبها سكان بدائيون هائمون وراء المواشي وأن كل ما فعله ملوك نوميديا هو أنهم أرغموا هذه الأنفار الضائعة على الإقامة في قرى بسيطة، والواقع أنه في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقبل ظهور ماسينسا الذي ينتسب إليه سياسة اقرار السكان، كانت هناك مدن داخلية زاهرة، مثل مدينة تبسة التي تجاوز عدد سكانها 15 ألف نسمة بناء على رواية ديودور الصقلي، ثم إنّ سيرتا نفسها كانت قبل ماسينسا حاضرة كبرى تضم كبرى جاليات أجنبية إلى جانب سكانها النوميديين

وهو ما تؤكد الوثائق الأثرية (شنيقي، 2003، ص 18). بل ورد في المصادر اللاتينية أن القبيلة النوميدية كانت تتألف من عدد متفاوت من البطون وفي كل بطن عدد متفاوت من البيوت، وكل المدن والقبائل المقربة من الأسرة المالكة تُنعت بـ "الملكية" وكثيرا ما كان الإنشقاق والتفكك يهدد المملكة، سواء زمن الحرب عندما تهزم، أو عندما يموت الملك ويستفحل الصراع على الملك، رغم القاعدة الوراثية التي كانت تفرض تولي أكبر أفراد العائلة المالكة سناً، وخلاصة القول أن بنية الممالك النوميدية قد تكون هشة، وهيكلتها قد تكون هزيلة لكن نفوذها متفاوت عبر الزمان والمكان (المحجوبي، 2001، ص 67)، ومن الملاحظ أن القبائل النوميدية كانت شبه مستقلة وتدين للملك بدفع الضرائب والفيالق العسكرية إذا تطلبت الحاجة، هذا باستثناء القبائل الملكية الموالية للملك (فرحاتي، 2007، ص 211).

ويقول جولييان في موضع آخر، مقارناً بين فعالية التأثير الفينيقي والروماني في الجزائر: "والتأثير البونيقي الذي استمر قرونا لأح خاصة في تبسة وقالة وقسنطينة وفي جهة عنابة، وأما تأثير الرومان فقد عمّ المغرب كله"، إنها مقارنة غنية عن التعليق، إن هذا النوع من إغماض الحقائق التاريخية يدخل في سياق ما كان يتوخاه أصحاب هذا المنهج، وهو اقناع القارئ بعظمة الانجاز الروماني وشموخ الكنيسة المسيحية في الجزائر القديمة بصورة يتضاءل أمامها كل شيء من منجزات التاريخ السابق أو اللاحق للفترة الرومانية، ماعدا الانجاز الفرنسي الذي هو استئناف لمهمة روما في نظرهم" (شنيقي، 2003، ص 18).

يبدوا أنا شارل أندري جولييان يشير إلى أنّ المواقع التي اشتغل على معاينتها في الجزائر هي مواقع شيدت أثناء فترة الاحتلال الروماني أعطى لها الكاتب أبعادا تاريخية شرعت للاحتلال فأسقط نظمهم الإدارية والضريبية وتقسيماتهم العمرانية وأساليبهم العقارية التي طالت الزراعة وأنايبب السقي وتوزيع المدن وغيرها كنماذج حضارية اقتدى بها الفرنسيون لاحقا في طريقة التعامل مع الجزائريين ، ولئن الأصل في التاريخ الاتهام - على حد قول مؤرخهم - يمكننا طرح أسئلة نراها ضرورية لتفنيد ادعاءات الكاتب، هل بنيت المدن القديمة خلال عهد

التجربة الفرنسية في الكتابات التاريخية الإستشراقية للجزائر القديمة" شارل أندري جوليان أنموذجا"
الاحتلال الروماني بأيدي رومانية أم بسواعد محلية ؟ وإذا سلمنا جدلا بأن الموقع
الأثري مدينة رومانية فالأصل في الشيء الأرض وليس البناء فالأرض جزائرية
توارثها الإنسان منذ القدم فمتى كان البناء دليلا على شرعنة الاحتلال (صدوقي،
2019، ص 422-423)

3.4 نقد أفكار وأراء شارل أندري جوليان:

يلاحظ في شارل أندري جوليان وغيره من الكتاب الأجانب اهمالهم للشعب
الجزائري في تناولهم لتاريخ الجزائر القديمة، فقد كتبوا عن الجزائر كمنطقة
جغرافية من العالم تداولت عليها الدول والشعوب من الفنيقيين حتى
الفرنسيين. وليس هناك في نظرهم "شعب -أمة- كيان"، أو، مجتمع متماسك، وإنما
هناك قبائل متنافرة متنازعة تخوض حروبا مستمرة ولا تخضعها الا القوة كالرومان
والأتراك والفرنسيين. هذه هي فلسفة الفرنسيين في كتابتهم لتاريخ الجزائر. وهم لم
يطبقوا هذه النظرية على عهدهم الذي يبدأ من 1830 م، ولكن جميع عهود تاريخ
الجزائر تبريرا لوجودهم (عامر، 2016، ص 199).

كان من الصعب على شارل اندري جوليان أن يتخلى على عادات وأفكار
الاستعمار مع أن كتاباته خارج فترة التاريخ القديم جاءت متوازنة بعض الشيء
حول الأوطان التي طالها الاستعمار وفي مقدمتها الجزائر، ومن جهة أخرى فعن
تكوينه الديني ذوا الأبعاد البروتستانتية والايديولوجية ذات الميولات الاشتراكية
جعلت منه شخصية تاريخية لها نظرتها وبعدها في تحليل الوقائع والاحداث ذات
العلاقة بالاستعمار والشعوب المستعمرة (الشيخ، 2020، ص 757).

الملاحظ في كتابات شارل أندري جوليان حول الفترة القرطاجية وبخاصة
الرومانية أنها أكثر تمديدية وهذا ما حاولت الكتابات الأجنبية الاستشراقية
وبخاصة الفرنسية تصوريه للاستعمار الحديث والمعاصر على أن الحضارة
الرومانية تمديدية وهو الباب الذي تحاول فرنسا من خلاله البقاء في الجزائر.

ثم إن كان سقوط قرطاجة بالنسبة لـ "شارل اندري جوليان" بمثابة بدء الاحتلال الروماني في افريقية، وكانت هيمنة مجلس الشيوخ الروماني لا تقتصر على محق الأعداء فقط، بل تتعداه على اعتبار تراهم أرضاً رومانية، ولذلك قرّرت هيئة متركبة من 10 شيوخ ومكلفة بتقرير مصير قرطاجة تحويلها إلى مقاطعة رومانية ربيع سنة 146 ق.م (جوليان ، 1983، ص 146).

ومن اعترافاته كانت بلادنا – الجزائر القديمة- بالنسبة لروما مستعمرة للاستغلال وليس للعمران فلم يكن الباعث على التوسع الروماني في عهد الإمبراطورية كما هو الشأن في أيامنا هذه الضرورة الديمغرافية فقد كانت روما في أواخر العهد الجمهوري تعد مايقرب من 14 مليوناً من السكان من بينهم أربعة ملايين من العبيد وتضاءلت الهجرة بسبب تناقص العمران الذي حاول أغسطس الحدّ منه ..الخ، كما أن عدد الأجانب في بلاد المغرب لم يكون عظيماً (جوليان ، 1983، ص 205). وقد تكون من أهم الأفكار الموجهة لفرنسا في مسألة تشجيع الهجرة نحو الجزائر وبخاصة توجهاتها الاستعمارية الاقتصادية وحاجاتها الضرورية بالنسبة لفرنسا.

5. خاتمة:

فضلت أن أختتم مقالي بما قاله استاذنا محمد البشير شنيقي "هذه بعض الملاحظات التي أمكنني تسجيلها عن المؤلفات الفرنسية المتعلقة بتاريخنا القديم ، فيها دعوة إلى ضرورة تسليحنا بالوعي واليقظة الفكرية عند قراءتها، حتى تكون استفادتنا منها ايجابية واستخدامنا لمحتواها مجدياً في كتابة تاريخنا الوطني (شنيقي، 2003، ص 18).

أضيف إلى الكلام السالف الذكر، بأنه يستلزم علينا أمام هذه الموجة العلمية في مجال التاريخ التي تواجهها الجزائر في التلاعب بتاريخها القديم ومن

التجربة الفرنسية في الكتابات التاريخية الإستشراقية للجزائر القديمة" شارل أندري جوليان أنموذجا"
طرف كتاب أجاناب وبخاصة فرنسيين، من الواجب علينا كباحثين التصدي لها
بالعقل والحكمة والدليل وبالموضوعية التي تتطلبها الأخلاق العلمية.
الأكثر من ذلك أن يقوم الباحثون الجزائريون المتخصصون بالاجتهاد في
ترجمة المصادر ذات الصلة بتاريخنا القديم وإعطاء رأيهم حولها، دون الاستناد إلى
الكتاب المستشرقين، بل والعناية العلمية بالفترة السابقة لها مُمثلة في حقبة ما
قبل التاريخ بالجزائر.

6. قائمة المراجع:

- أفحيز عامر. (2016). المؤرخ شارل أندري جوليان ودوره في كتابة تاريخ الجزائر. مجلة قضايا تاريخية (العدد الثاني).
- الحسين يختار. (2021). إطلالة جديدة على التاريخ الجزائري القديم- قراءة في الأصول- الحوادث-المصطلحات والأسماء. سيدي بلعباس (الجزائر): دار الأصول للطباعة والنشر.
- أحمد صدوقي. (2019). الكتابة التاريخية الإستعمارية الفرنسية من خلال إسهامات بيروجر في المجلة الإفريقية. العدد 48.
- أوحاشي الطاهر. (2016). العهد الروماني في الجزائر (40-430م) نقد الاسوغرافيا الكولونيالية الفرنسية.
- جفلولي جمال - يوسف تالي. (جوان، 2017). الاستشراق في الجزائر بين الأطروحات والوسائل- دلالة نقدية لبعض الأعمال الاستشراقية الفرنسية-. (العدد السادس).
- جوليان، شارل أندري. (1983). تاريخ افريقيا الشمالية" تونس- الجزائر - المغرب الأقصى- من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م. (البشير بن سلامة ومحمد مزالي، المترجمون) تونس: الدار التونسية للنشر.
- حكيم بن الشيخ. (2020). الدولة والمجتمع في الجزائر من خلال كتابات تاريخية فرنسية" قوتي وشارل أندري جوليان أنموذجا". المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والإجتماعية، 12 (1).
- ريغي مراد. (2020). ديودور الصقلي وتاريخ بلاد المغرب القديم. مجلد 4 (2).
- شارل أندري جوليان. (1976). إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية. (فتحي زهير والصادق المقدم، المترجمون) تونس: الدار التونسية للنشر.
- عبد الحميد بن شنهو. (2007). الملك العالم يوبا الثاني وزوجته كليوبترا سيليني. الجزائر: وزارة الثقافة.
- عبد الرحمان خلفه. (2007). الديانة الوثنية المغاربية القديمة منذ النشأة إلى سقوط قرطاجنة 146 ق.م. الجزائر: جامعة منتوري قسنطينة.

- التجربة الفرنسية في الكتابات التاريخية الإستشراقية للجزائر القديمة" شارل أندري جولييان أنموذجا"
- عبد السلام بن ميس. (2010). *مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الامازيغية القديمة*. الرباط.
- عثمان الكعاك. (بلا تاريخ). *البربر*. تامنغست.
- عمار المحجوبي. (2001). *ولاية إفريقيا من الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد السويدي*. تونس: مركز النشر الجامعي.
- غابريال كامبس. (2011). *في أصول البربر ماسينسا أو بدايات التاريخ*. (محمد العربي عقون، المترجمون) الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية.
- فتيحة فرحاتي. (2007). *نوميديا من حكم الملك غايا إلى بداية الاحتلال الروماني*. الجزائر: منشورات أبيك.
- محمد البشير شنيقي. (2003). *أضواء على تاريخ الجزائر القديم" بحوث ودراسات"*. الجزائر: دار الحكمة.
- محمد بن مبارك الملي. (بلا تاريخ). *تاريخ الجزائر في القديم والحديث* (المجلد الجزء الأول). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.